نكهة القهوة

جلستُ على كرسي أتأمل من النافذة، كنت متقلِّبة المِزاج، وأعاني من الصداع، نهضت لأحضر فنجان قهوتي على مهلٍ، فكما قال (محمود درويش): «القهوة، لمن أدمنها مثلي هي مفتاحُ النهار، القهوة، لمن يعرفها مثلي؛ هي أن تصنعها بيديك، لا أن تأتيك على طبق» أحب أشعار هذا العملاق واحترامه لنكهة القهوة وفنجانها، حضَّرتها على مهلٍ ككل يوم، ثم أخذتها إلى حيث جلستي والنافذة.

ارتشفتُ أوَّلها بهدوءٍ، وأغمضتُ عيني ونظرت أمامي، رأيتُ حديقة البيت الصغيرة ومِن أمامها الشارع الهادئ وسيارتي وبعض المارَّة، شابًّا يَسِير على عَجلٍ، وامرأة تُمسِك في يدها بكيس وبيدها الأخرى تتشبث بصغيرها البالغ من العمر خمس أو ست سنوات، وعجوزًا يتأنَّى الخطوات على الرصيف الآخر يخشى السقوط على الرصيف المكسور وهو يسير، وفجأة تمتمتُ بيني وبين نفسي:

ـ كم تمنيت لو تُسمَّى باسْمِكَ كل الأشياء، فلا أنطق غيره، ولا أرى غيره ولا أسمع غيره!!

ـ أجل... ماذا كان سيحدث لو سُمِّيَتْ باسْمِكَ.. فرأيته في كل مكان؟!

لَيته على أشجار الحديقة.. على بتلات الأزهار.. خاصة الياسمين.. فأنت تحب الياسمين جدًا.. ليته على لوحات الإعلانات والمباني، وأسماء الشوارع والمدارس، وحتى على المطاعم والمكتبات.. حقا! لمَ لا يكون حتى اسم طعام!!

أجل، صنفًا مكوناته فريدة، يُصنع بتميز، ويُسمى باسْمِكَ.. فيَعرفه العالَم، وينتشر بين الحضارات المختلفة كما انتشرت بيننا أصناف المأكولات الإيطالية.. كالبيتزا، واليابانية.. كالسوشي، وغيرها الكثير، وباتت في كل بلاد العالم.

أو ربما لو كان على أصناف الفاكهة والخضروات، أو ربما على المجوهرات العريقة فتزداد جمالًا وبهاءً.

وبالتأكيد، لو كان على السيارات ـ مثلًا ـ لزادت مبيعاتها، وحتى نُفرِّق بين أنواعها نضِيف بعد الاسْمِ الأرقام، الأول.. الثاني.. الثالث.. وهكذا.

ليصبح كل شيءٍ حولي يدور في فلك وجودك، ليصبح كل شيءٍ حولي لك وبك ومنك ومعك.

خاطبتُ نفسي:

ـ ماهذة الأمنية؟ أوهذا الحلم الجميل؟! هل استيقظت به؟ أم غزا تفكيري الآن؟ ربما هو وهم جميل.. لكنه سرى بدفءٍ

في أوصالي.. وشعرت بحاجتي لاحتضانك.. للمسةٍ منك.. لنظرةٍ من عينيك.. لمْ أكن يومًا ضعيفة وهشة كما أنا معك.. وكأنك أصبحت تملك لي ترياق الحياة.. وما عدت أنا بعدك كما كنت قبلك.. بِتُّ أقتات منك الزاد والمراد..ولا أعلم ماهية هذا الشوق الدائم، وكيف أحيا به؟ كيف لابتسامةٍ منك صغيرة أنْ تفك شفرة حزني مهما كان؟ وإذا ما أغضبتني بنظرةٍ صغيرة من عينيك تذيبني فأرضخ وكلي استسلام.. أي هبة عظيمة من الله هذا الحب؟ أي سطوة؟ أليس هذا الحب سطوة وسلطة وُضعت بين يديك؟ فكيف يخلق الله ـ تعالى ـ فينا هكذا شعور وإحساس، ويضعه في يد كائن واحد؟!

نظرتُ أمامي للفنجان.. تأملته.. فرأيت وجهك المبتسم كما أراه كل صباحٍ .. ابتسمت، وأخذت نفسًا عميقًا، ونهضت من مكاني، وبدأت أتذكر ما ورائي اليوم من مهام، ثم انتبهت على صوت جرس باب ينطلق بشكلٍ متكرر.. فزعت إلى الباب.. وفتحته سريعًا.. فوجدتك أمامي.. بقامتك القصيرة، وثيابك المتسخة، وشعرك المُجعد، وحقيبتك التي أصابها الإنهاك مما تَحمِله.. حتى أنَّ بعضها مفتوح، وبعضها مغلق..ليس كل هذا هو المهم.. نظرة عينيك هي الأهم.. نظرة دفءٍ وحنان، وأنت تقول:

- أين أنتِ يا أمِّي؟ قَرعت الباب كثيرًا، وضعت يدي على رأسك، وأنا أنظُر إليك في لهفةٍ:
- حبيبي، اعذرني، لَمْ أنتبه إلّا الآن؟

دخل «كريم» إلى المنزل، ووضع الحقيبة على الكرسي، ثم التفت إليَّ مُجددًا، قائلًا:

- لا عليكِ يا أمي.

ابتسمْتُ في سعادةٍ وأنا أراك مبتسمًا لي، كما كنت أمامي في الفنجان.